رواية

رفيق الحب

توحيد هارون نويه

كن مبدعا فيما تحب

كن أنت

ولا تحاول أبداً أن تكون مثل الآخرين

لايمكن لأي أحد كان أن يقف في طريق حبها له ..

هي تعشقه

تعشق كل مافيه

لانقاش في هذا الأمر

لكن تبقى قضيتها الكبرى في أن تجعله يعترف عنوة بحبها

ويكف عن هروبه من الحب ومنها

عينيه تفضح مشاعره كلها وتجرد قلبه من الخوف

بوسعها هزيمة الكون بأسره والقتال حتى النفس الاخير لتكسب معركة حبها لكنها عاجزة أمام صمته

أمام تلك العينان التي تأخذها إلى أبعد الأحاسيس عمقا وبصمت تام

كلما حاولت أن تبتعد يشدها إليه بطريقة لاتصدق

كلما شككت في حبه لها وتحاشت وجوده أثبت لها المرة تلو الأخرى بأنه مغرم بها

لايتركها وشأنها ولا يقول شيئا لتبقى معه

غريب أمره

جلس يفترش الأرض قرب صديقه وهو يردد بإصرار

- لقد قررت ، دعنا نخرج من كل هذا

رد عليه صديقه بيأس :

- أنت شخص حالم وانا واقعي ، ما تقوله لم يخلق ليكون لنا ، هذه حياتنا وقدرنا وما كتبه الله لنا
- لا يا اخي الله لم يكتب لنا هذا الشقاء إلى الأبد نملك الخيارات دوما دعنا نفعلها

قهقه رفيقه عاليا وهو يتمدد على التراب المتسخ ويستند على ساعديه

- افعلها وحدك ، أنا لا أستطيع ، لا املك القوة ولا الجرأة لمواجهة أحد ، دعني هنا ، هذا عالمي الذي انتمي إليه
- أنت مخطئ لانك لاتنتمي إلى هذا العالم ولا أنا الظروف قادتنا إليه ، لكن سنغير تلك الظروف ، هذا المعهد يقبل اي احد ، لنجرب فقط ، معنا نقود التسجيل
- من السرقة ؟ هكذا سنبدأ إذا ؟
- الضرورات تبيح المحظورات
- ثم ماذا
- نحتاج ثياب نظيفة ومقبولة فقط
- نحن انقياء من الداخل أكثر منهم ومن ثيابهم
- لنتفق على شئ واحد ، هم لايعنون لنا شئ ولايهمنا أمرهم كل مايهمنا هو نحن ، نحن وكفى
- وماذا ستفعل لنا تلك الشهادة
- ستحقق حلمنا ربما ، قد تساعد اخوتنا الذين يتساقطون يوما بعد يوم ونؤسس امبراطوريتنا الخاصة
- يا اخي كفاك تعذيبا لروحك ، هذه الشوارع خلقت لنا ، لنجد فيها الحياة ، أن تركناها سنموت
- لن نتركها لكننا سنجرب ، ساعدني أرجوك ، احتاج اليك
- سأساعدك في كل شيء إلا تلك السخافة
- سأذهب وحدي إذا
- أفعل ماتشاء لكن بعيدا عني

تقبل نوح الأمر على مضض وخرج من الوكر لتنفيذ خطته

تبعته إلى المكتب بهدوء متسللة خلفه كالجواسيس
ملأ كوب قهوته وجلس في مقعده وهو يبتسم لا إراديا لرؤيتها خلفه ثم قال بمودة :
هل تتجسسين علي ؟
ظهرت أمامه وهي تضحك بعفوية ثم رمت بجسدها على الكرسي المقابل له قائلة '
ربما ..من يدري
_لاشئ يدعوك لذلك ، انتي مقربة مني وتعرفين عني أكثر مما أعرف عن نفسي
نهضت لتسكب لها كوب قهوة وتعاود الجلوس في مكانها قائلة
_ليس بهذا القدر
_بلى بهذا القدر
كان دفء الحب يملأ المكان
كل ما فيهما يؤكد بأنهما مغرمان ببعضهما إلى حد بعيد
تساءلت :
_أيمكننا الخروج الى أي مكان بعيد عن المستشفى ؟
رد وهو يأخذ رشفة من كوبه :
_خرجت للتو من غرفة العمليات لا أرغب بشئ سوى النوم ، بالكاد يمكنني الرؤية ، لكن كما تعلمين لايمكنني
رفض طلب هذه الأميرة الفاتنة
إبتسمت بحياء وهي تقول متحمسة :
_أين سنذهب ؟
_أختاري المكان
_ماذا إن أخترت مكان بعيد
_إن رغبت في الذهاب الى القمر سأخذك إليه ,جربيني
ضحكت بحب وهي تقول :
_أعلم هذا
ثم أضافت :
_بما أنك متعب لنذهب إلى البحر يمكنك الأسترخاء هناك قليلا
_حتى متى ستتخلين عن أماكنك المفضلة لأجل راحتي
_حتى الأبد
_لا أدري ما كنت سأفعله إن لم تكوني في حياتي
_لاتفعل شئ ، سأنتظرك في الخارج بدل ثيابك
قالت ذلك وهي تنهض من مقعدها مبتسمة وتغادر المكتب

بالرغم من كمية الرعب التي كانت تسيطر على كل ذرة من جسده ، أجبر خطواته لتقف أمام ذلك المبنى الشاهق
قاد قدميه على أدراج السلم وصعد إلى الطابق الثالث حيث تلك اللافتة الكبيرة التي كتب عليها (معهد العلم) كان يغامر بحظه ..
بما قد يخبئه له القدر ..
وبعد صراع طويل مع الخوف تمكن من نطق تلك الكلمة بصوت ضعيف :
_مرحبا
رغم ضعفها التقطتها أذن ذلك الشاب الذي يقف خلف طاولة خشبية كبيرة مكدسة بالدفاتر وأوراق التسجيل نظر إليه الشاب بتمعن ، إلى نحافته الفاضحة وملابسه المتسخة الممزقة لحد الشفقة وقال :
_يعطيك الله ، أنصرف من هنا فهذا مكان للعلم لا التسول
_لست متسولا ، أتيت لأتعلم
قال الشاب مهددا بلهجة حادة :
_إن لم تخرج سأستدعي لك الشرطة وستمضي مابقى من عمرك في السجن
أستجمع كل شجاعته لمحاولة أخيرة :
_أنا أعمل في السوق ، أحمل الأثقال لذلك شكلي يبدو هكذا ، معي نقود وأرغب في تعلم التمريض ، مكتوب على اللافتة أن هذا المكان يمكنني التعلم فيه
أنهى حديثه وهو يمد الي الشاب حزمة من النقود الورقية
بدأ الآخر أكثر قناعة عند رؤيته للنقود الكثيرة التي تعجل في أخذها وهو يتلفت يمنة ويسرة خشية من أن يراه أحد وسحب أستمارة تسجيل من الدرج مع قلم وهو يقول :
_أملأ هذه البيانات ومن الغد عليك أرتداء ملابس نظيفة والحضور عند الثامنة صباحا ، أفهمت
هز رأسه غير مصدق وهو يدون بياناته كلها بأنامل مرتجفة ويخرج يسابق الأفراح خطوة بخطوة .

مكان إقامته لم يكن بعيدا عن المعهد
إنه يبعد فقط ثمانية شوارع حيث يقيم مع إخوته هناك منذ سنوات
لا مكان آخر قد يذهب إليه غير هذا
مر وقت طويل دون بيت يحتويه
دون أم وأب وأسرة كريمة
أخذوا منه كل ما يملك
ضحكة أمه الجميلة وحنان والده وهو يمسح على رأسه بمودة وحب
شجاراته البريئة مع أخوته الذين لم يعد يعرف أين هم
لا شيء بحوزته الأن إلا صديق
حرقوا قريته كلها لسبب لايعلمه الا الله
شردوهم في كل بقاع الأرض
من مات مات
ومن لم يمت غدرا ولا عطشا ولا جوعا
هو الآن في مكان ما يحتمي من صوت الرصاص والصراخ
الأن تحديداً مسكنه هو الشوارع
هذا هو بيته
وجد صديقه ممددا على الأرض يتناول مشروبه المعتاد
إرتمى قربه ليأخذ أنفاسه المتسارعة وهو يردد غير مصدق
- لقد واففوا .. واففوا يا اخي
تقبل صديقه الأمر بغير اهتمام وقال بلا مبالاة واضحة
- مبروك
تسرع يحكي له بالتفصيل ما حدث معه والآخر في عالمه الخاص وكأن لا احد معه
وأخيرا اضاف بحيرة
- لكن أين أجد ملابس نظيفة
عند هذه الجملة أنفجر صديقه ضاحكا بكل جوارحه
- لماذا تضحك
- عليك
- لماذا
- فيما تقول ، هل أنت جاد بأنك ستتعلم مثلهم
- تعلم بأنني جاد
- إفعل ما تريد
- لكنني لا أملك ملابس نظيفة
رد عليه صديقه بجدية
- ستملكها بعد قليل ، سترتدي أجمل من ثيابهم يا صديقي الطيب القلب ، لنرى ما سيقدمونه لك
- ماذا ستفعل
- ما أفعله كل الوقت
- ستسرق
- لا عليك بما أفعله حقق ما تريد لحياتك وستجدني بظهرك دائما إن كنت مثلنا أم مثلهم

في مملكة الشوارع
مملكة الظلام
لكل مكان لايجرؤ الآخر على الإقتراب من حدوده
والبقاء دوما للأقوى
إما أن تكون فريسة أو ذئب لا خيار آخر
صديقه كان ذئبا
فعل كل شيء .. فقط ليعيش
ليحمي نفسه وصديقه الضعيف من الذئاب التى تتربص بهم
فعل كل مالا يخطر على بال بشر ليبقيا على قيد الحياة والأمان وتآمر مع الشيطان بعينه ليصل الى هذا المكان
تلك المجزرة التي حدثت أمام عينيه منحته القوة ليكمل لعبة الحرب التي بدأت بهم
هناك حيث جمعوا كل الرجال والذكور في وادي كبير وأطلقوا عليهم النيران كأنهم جرذان لاقيمة لها ثم
أغتصبوا النساء
والفتيات
وأخذوا منهن من أخذوا لخدمتهم في معسكرات الموت تلك
هكذا فعلوا بهم بكل بساطة
هكذا
والأن هاهم بين الشوارع يقاتلون الموت ويأخذون بثأرهم من الحياة
لايحق لأحد أن يحاسبهم
ولا أحد
بعد ساعة كانت الثياب الفخمة أمامه ، كل أنواع الثياب والدفاتر والأقلام مع أمنيات صديق تتلوث يديه دما
لأجله
بدأ كورس التمريض مع ذلك التصميم الذي ملأ قلبه وصوت أمه الحنون يناديه عبر الفراغ بلقب دكتور
أرادت له ذلك اللقب بكل الحب في هذا الكون وأصر على أن يكون كما أرادت رغم الغدر والفراق والدموع
أكمل الكورس وتم توزيعه بأحد المستشفيات الحكومية
كان متفانيا في عمله ، يحبه جدا وكأنه كل الأشياء التي فقدها ذات يوم ويخاف أن يفقدها مجددا
شهد الجميع بلا استثناء على مهارته في عمله وأصبح معظم الأطباء المشهورين يعتمدون عليه ويطالبون بأن
يكون معهم

كان البحر هادئا وصوت أمواجه يعانق زرقة السماء الصافية
المكان شبه فارغ ، هنا بعض الرفاق يقتسمون الخبز والموسيقى ، هناك عاشقان يرسمان أحلام منزلهما على صفحات الماء
وهذه السمراء المناضلة خلف طاولة صغيرة جلست تلبى خدمات الزبائن من قهوة وشاي
بوجه بشوش
القيا عليها التحية طالبين كوبين من القهوة ثم جلسا في مقعدين متقاربين أمام البحر
قالت وهي تترك قدميها للبحر حافية
- يمكنك النوم ، لن أعترض
خلع حذاءه مثلها وحرك الماء بقدميه
- لايمكنني النوم في حضرة الحب والبحر
كانت كلماته تقول كل شيء ولاتقول شئ في الوقت ذاته
- ألم تقل بأنك متعب
- كنت متعبا ، الأن أشعر بالإرتياح
إبتسمت بعشق وهي تنظر إليه
- لماذا ؟
- لأنني كنت بحاجة لهذا المكان وانتي معي ، مر وقت طويل منذ آخر مرة كنا فيها هنا
- بدوت مؤخرا وكأنك في عالم غير عالمنا ، أخذتك غرفة العمليات من الحياة
- ماذا أفعل ، لا أجيد شيئا إلا عملي ، أهرب إليه كلما ضاقت بي الدنيا
- حتى متى ؟
نظر إليها مطولا وهو يقول:
- الله وحده يعلم
- أنت رجل قوي ، لم تهزمك الحياة يوما فلماذا تعطيها الان هذه الفرصة
- لطالما هزمتني يا ماريا ، هزمتني في كل ما أملك وجردتني من كل شيء ،
كانت تدرك بأن صديقه هو السبب الأكبر في هذا الحزن ، صديقه الذي بات مؤخرا بعيدا عنه كبعد الأرض عن السماء
- سيتفهم الأمر ويصفح عنك
تنهد بحزن قائلا :
- لا أدري لقد قسوت عليه كثيرا هذه المرة ، اعلم بأن الطريق الذي اختاره سيؤدي به إلى الموت لكنه لايسمعني ، لايفهم حتى ما أقول
- أنتما تعيشان في عالمين منفصلين ، كل منكما يرى بأن ما يفعله صحيح ، لذا أتركه يعيش الحياة التي يريدها ، لاتضغط عليه
- تلك ليست حياة يا ماريا ، هذه العصابات ستقتله
- لن يموت ، أنه يعرف جيدا مايفعل
- لكن مايفعله بلا أخلاقية
- لا تحكم عليه لمجرد انك في مكان افضل منه ، ساعده بلا احكام كما فعل معك
- إن لم أكن أعرفك يا ماريا لقلت انك تحبينه
ضحكت كثيرا ثم ردت ببساطة:
- وماذا إن كنت حقا احبه
نظر إليها عن قرب ليتأكد من حديثها ثم قال:
- لا لا انتي ملك رجل واحد فقط لا سواه
قالت بإصرار:
- من
تهرب كعادته من ذلك السؤال وهو يملأ يده بالماء ويلقيها على وجهها قائلا
- الماء بارد جدا

ردت بيأس:

- أجل ، جدا

من يملك القدرة على تغيير قدره بيديه لن تهزمه الحياة

لن يبكي على الأطلال

سيكون دوما أقوى وسينتشل الآخرين من الظلام

أوقف نوح سيارته أمام ذلك المخبأ بأحد الشوارع وترجل منها متوجها نحوه

أوقفه الحارس بالباب بنظرات شرسة وهو يحول بينه وبين الباب

- اين تذهب
- إلى أدم , أعلم أنه في الداخل
- أمر أدم ألا تأتي إلى هنا وإلا مزقناك إلى قطع صغيرة تعجز الغربان عن أكلها
- أفعل ماتريد لكنني لن أذهب من هنا قبل رؤيته

أكمل حديثه وهو ينادي على أدم بعلو صوته والآخر يدفعه للخارج

لاح أدم يتبختر في ثياب من الجلد وأنامله مزينة بخواتم الذهب الغالية

- أتركه

ترك الحارس نوح وذهب لشأنه

- ماذا تريد ، أخبرتك ألا تأتي إلى هنا يا دكتور وهذا اخر تحذير لك

أقترب منه نوح متوسلا

- أدم ماذا تفعل بحق الله ، أتبيع هؤلاء الأطفال مقابل حفنة جنيهات ، أي ذنب أقترفوا
- لا شأن لك بعملي ، إن أعترضت طريقي مجددا سأقتلك يانوح
- أقتلني الان إذا لأنني لن أسمح لك ببيعهم
- ماذا تريد مني ، ألم تختر حياتك بعيدا عنا ، ما الذي أتى بك الينا
- أخترت هذه الحياة لأجلكم ، لعلاجكم أنتم ، أنا منكم لا أحد لي سواكم
- لا يانوح لم تعد منا ، أنت الأن مثلهم وستبقى مثلهم
- من هم ، عمن تتحدث
- أولئك الذين قتلوا أهلنا وشردونا
- أدم لاتكن حاقدا بكل هذا القدر يا اخي ، ساعدني لنبني بيوت شوارع نقية ونظيفة ، ساعدني لأجل هؤلاء الأطفال الذين تنوي بيعهم إلى الجحيم
- أغرب عن وجهي يانوح
- أرجوك يا أدم أرجوك
- فات الاوان يا أخي ، أذهب تمت هذه الصفقة كغيرها ولايمكنني التراجع
- سأبلغ عنك
- لو كانت الحكومه ستحميهم وتأخذ بحقوق طفولتهم ما كنا أنا وأنت يوما هنا بين هذه الشوارع ، بلغ من تريد ولن يحركوا ساكنا

قال أدم ذلك وهو يوليه ظهره ويذهب تاركا إياه يتأمل الفراغ خلفه

قبل أن يتمكن نوح من بلوغ الباب هوى على الأرض اثر ضربة قوية على رأسه تم إقتياده بعدها إلى زواية المكان وتقييده بالسلاسل

تم كل شيء بهدوء تام كما تتم كل عمليات القتل والتطهير والتشريد والإغتصابات

عندما فاق نوح لم يرى إلا مكانهم فارغا

عجز عن إنقاذهم

كان ألمه لايوصف وكأنهم باعوا قطعة من روحه

بكى يومها كما لم يفعل من قبل

كان المكان مليئ بالتابعين لأدم ولم يكن هو بينهم

لم يعد بعد

تمنى نوح لو يقتلهم الواحد تلو الآخر وينهي شرهم

لكن السلاسل تمنعه من الحركة

والرباط على فمه يمنعه من الصراخ

كان يفكر فيما سيفعله

إلى من يرفع قضية طفولتهم

من سيحمي وجودهم في هذه الديار حيث لا مكان آخر لهم

لا يمكنه أن يعود الى الشوارع مرة أخرى لأن أدم الذي يحمي وجوده بات خطرا عليه

ليس أمامه طريق آخر إلا إقناع صديقه بالتراجع عما يفعله وحتما سيفعل

وردهم اتصال على أثره فكوا وثاق نوح وطلبوا منه الذهاب

قال أحدهم

- هذه الدولة تتغذى على دماء الأبرياء يانوح ، دعنا نعمل وأنصرف لحالك ، لسنا مثلك كان من الممكن أن نباع مثلهم أو نموت بين الشوارع يوما لكننا نجونا وعلينا أن نعيش
- لن أذهب إلى أي مكان سأنتظر أدم
- لن يأتي اليوم
- سأنتظره ولو بعد عام

لم يناقشه أحد ، تركوه وحسب فلا أحد هنا يجرؤ على الإقتراب من صديق أدم ألا أدم نفسه

- أرى بأنك لاتزال هنا

قالها أدم وهو يجلس على مقعده الملكي مسترسلا

- كما أرى الغضب في عينيك ، مم أنت غاضب يا اخي لقد ذهبوا حيث يفترض بهم أن يكونوا هذا أفضل لهم من الشوارع
- دعنا نتكلم رجل إلى رجل يا أدم ، أخلع عنك هذه العباءة وحدثني كأخ
- أخيك مات ، تعازينا

صاح به نوح :

- أدم ،

وقف أدم أمامه وجها لوجه وهو يصيح بدروه:

- ماذا تريد
- أريد أخي ، أخي الذي أعرفه

أخرج أدم كل من بالمكان ووقف أمام نوح قائلا بنفاذ صبر:

- نوح ، لن أدعك تقلل من شأني في مملكتي بين الوقت والآخر ، أختصر ماذا تريد؟
- أريد أدم الذي كان يحميني من كل هذا الجحيم ، ألا ترى في وجوههم وجهي ووجهك ، ربما كان أحدهم إبن أختك مريم أو أبن أخي ، من يدري ، أدم بحق الله عليك كن معهم ولا تكن عليهم ، تكفيهم قسوة هذه الطرقات ، البرد والشمس والمطر والذل ، ضع يدك في يدي وأحمهم كما كنت تفعل معي كل الوقت ، هم أخوتنا يا أخي ليسوا من تبحث عنهم ليسوا أعداءك
- إن لم أفعل هذا سيفعله غيري أعدائهم في كل مكان لست عدوهم الوحيد
- لا علاقة لك بالآخرين ، أحمهم يا اخي أنت قادر على ذلك
- وأنت تقلب قوانين الشوارع رأسا على عقب يا اخي
- أرجوك يا أدم أفعل هذا أو أتركني أعود للعيش هنا ومحاولة الدفاع عنهم
- لن تعود إلى هنا
- إذا ساندني يا اخي

أستسلم أدم اخيرا فآخر ماقد يرغب فيه هو عودة نوح إلى الشارع

- ماذا نفعل اذا يادكتور
- اليك ما سنفعله ، أجمع كل الاطفال الذين تشعر بالخطر عليهم إلى منزلي أنه كبير ومليئ بالغرف سنحتجزهم هناك ونوفر لهم كل ما يحتاجون إليه
- ستحول بيتك إلى إصلاحية؟!
- بلى سأفعل
- لك ما تريد ، ثم ؟
- سنستمر في حمايتهم فقط ، سنحارب لأجلهم ومعهم لا ضدهم لأنهم أخوتنا

ردد أدم وكأنه يحدث نفسه:

- لأنهم أخوتنا

كان الأتفاق بينهما واضحا ، ستتم كل الصفقات أمام الجميع لأجل حفظ هيبة أدم لكن الأطفال سيذهبون إلى منزل نوح عوضا عن بيعهم

مر العام وكل شي يسير كما مخطط له
بذل أدم كل مافي وسعه لإنجاح تلك الخطة
وكان نوح يفعل المستحيل لبقاءهم على قيد الحياة والعلم والإنسانية والحب
لم يكن يملك خيارا آخر إلا أن يجعلهم صالحين ولو رغما عن أنفسهم
وزع يومه بين المستشفيات التي يعمل بها وبينهم
لا أحد يعلم ما يدور داخل منزله الا هو وصديق عمره
مئات الأطفال كانوا يتجولون بين الغرف ، يأكلون كل ما لذ وطاب ، يلبسون أفضل الملابس ، يشاهدون قنوات الأطفال على شاشه كبيرة وكان نوح يعمل بإخلاص دون راحة ولا نوم لأجلهم فقط
إزداد عمله وتكاثرت نقوده ، أشترى منزل وثالث لأن عدد الأطفال في تزايد والشوارع لاتوفر لهم الأمان
كان بحاجة لمن يحرس أولئك الصغار ولم يجد إلا أخوته من الشارع ليتخذهم درعا يحمى الطفولة المسلوبة
في كل منزل حارس وعدد من كاميرات المراقبة
رقت ملامح أولئك الأطفال ، زال التوحش والتمرد من أعينهم ، باتوا أكثر سكينة وهدوء ومرونة ، عادوا لأحضان الطفولة بإختصار

ذات ليلة من ليالي ديسمبر الباردة ،
كان نوح في عرفة العمليات يخيط جرحا بإحترافيته المعهودة عندما شعر بالألم يكتسح كل عضلات قلبه
إهتزت أنامله لأول مرة في تاريخ مهنته الذي شهد عليه بالمهارة
وغادر غرفة العمليات دون سبب منطقي يدفعه لذلك
بحث عن الهاتف بين أدراج مكتبه وهاتف أدم
لايوجد رد
مرة وثانية وثالثة ومائة
أخذ مفتاح سيارته وخرج مسرعا دون أن ينتبه لثياب العمليات التي لايزال يرتديها
قاد يسابق الرياح إلى منزله
حيث الصغار هناك
كانت الأبواب مفتوحة على مصراعيها ولايوجد أحد
ظل ينادي كالمجنون أسم تلو الآخر ولا أحد من الصغار يرد عليه
هرول نحو السيارة كالمجنون ، ذهب الى منزله الثاني والآخر لكن كل المنازل فارغة
لقد غدر به أدم
غدر به رفيق عمره
غدر به رفيق الحب وأنهارت مملكة النور على رأسه
ذهب إلى مقر أدم والشرر يتطاير من عينيه
سيقتله
أقسم أن يقتله
ترك باب السيارة مفتوحا وجرى نحو باب أدم والمسدس في يده
ما بينهما سينتهي اليوم
سينظف الشوارع منه إلى الأبد
باب أدم كغير العادة لم يكن مغلقا
دخل بسهولة وهو ينادي على أدم
الكل يغرق في الدماء
تحول المكان إلى مجزرة أبيحت فيها الرقاب
كان أدم يدفع ثمن حمايته لأطفال الشوارع هو وكل التابعين له